﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ١٠٣﴾ [النحل: 103]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا ذَكَرَ اللّهُ ﷻ في الآية السابقة شبهةً من شُبه الكُفّار يدّعون فيها أنّ القرآن من عند رسول الله، وردّ عليهم بأنّه كلام الله نَزَّل به روحَ القدس جبريلَ عليه السلام مِن لَدُنْه ﷻ بالحقّ ليُثَبِّتَ الذين آمنوا على الإيمان، وليَكون هدًى وبشرى للمسلمين؛ جاءت هذه الآية لدحض شبهة أخرى بأوضح أسلوب وأفصح بيان؛ كشَف الله ﷻ عنها بعلمه سبحانه؛ إذ عزا الكفارُ هذا القرآن إلى مصدرٍ من البَشَر، ودلَّل ﷻ على كَذِبِ هذه التّهمة بدليلٍ منطقيٍّ قاطع بِكذبهم وبطلان شُبهتهم.

القرآن الكريم لم يتعلّمه الرّسول عليه السلام من بشر

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَشَرٞۗ﴾: مادّة (بشر) أَصْلٌ يدلّ على ظهورِ الشَّيْءِ مَعَ حُسْنٍ وجَمالٍ، فالبَشَرَةُ ظاهِرُ جِلْدِ الإنْسانِ، وسُمّيَ البَشَرُ بَشَرًا لِظُهورِهِم، والبَشيرُ الحَسَنُ الوَجْهِ[1]، وعُبِّر عن الإنسان بالبشر اعتبارًا بظهور جلده من الشعر، بخلاف الحيوانات التي عليها الصوف أو الشعر أو الوبر، واستوى في لفظ (البشر) الواحد والجمع، وثُنّيَ؛ قال تعالى: ﴿أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا﴾ [المؤمنون: 47]، وخُصَّ في القرآن كل موضعٍ اعتبر من الإنسان جثته وظاهره بلفظ البشر[2]، والبَشَرُ: اسْمٌ يَقع على النّاس أسودِهم وأحمرِهم[3].

وحين "أراد الكفار الغضَّ من الأنبياء اعتبروا ذلك فقالوا: ﴿إِنۡ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بشر).
(2) الرّاغب، المفردات: (بشر).
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (بشر).

هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ﴿٢٥﴾ [المدثر: 25]"[1]، فقول الكفار: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ﴾ يقصدون غلامَين عَجَميَّين: جَبْرًا ويسارًا[2].

2) ﴿لِّسَانُ﴾: "اللِّسانُ: ما يَنطِقُ، جارحةُ الكلام، يُذَكَّر ويُؤَنَّث، والألسُن بيان التأنيث في عدده، والألسِنةُ في التذكير، ولَسَنَ فلانٌ فلانًا يَلْسُنُه، أي: أخَذَه بلسانه، وقال طَرَفة:

وإذا تَلسُنُني ألْسُنُها *** إنّني لستُ بمَوْهونٍ فقِرُ

واللِّسانُ: الكلامُ، من قوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ [إبراهيم: 4]"[3]، "أي: بلغَة قومه"[4]، "ومنه قوْلُهم: لِسانُ العَرَبِ أفْصَحُ لِسانٍ"[5]، "وأطلق على اللغة؛ لأنه أبرز آلاتها ... ولم يأتِ في القرآن من التركيب إلا كلمة ﴿لِّسَانُ﴾، وجمعه (ألسنة)"[6]، والمعنى في الآية: لُغةٌ وكلامٌ.

3) ﴿يُلۡحِدُونَ﴾: "اللَّحْدُ: حُفْرة مائلة عن الوسط، وقد لَحَدَ القبرَ: حفره، كذلك وألْحَدَهُ، وقد لَحَدْتُ الميّت وألْحَدْتُهُ: جعلته في اللّحد، ويسمّى اللَّحْدُ مُلْحَدًا، وذلك اسمُ موضعٍ من: ألحدته.

ولَحَدَ بلسانه إلى كذا: مالَ، قال الله تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ﴾ من: ألْحَدَ، وقُرئ: ﴿يَلۡحَدُونَ﴾ من: لَحَدَ، وألْحَدَ فلانٌ: مال عن الحقّ، والإلْحادُ ضربان: إلحاد إلى الشّرك بالله تعالى، وإلحادٌ إلى الشّرك بالأسباب، فالأوّل ينافي الإيمان ويبطله، والثاني: يوهن عُراه ولا يبطله، ومن هذا النحو قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج: 25]"[7]، والمعنى في الآية: يَنْسِبون إليه التعليمَ.

4) ﴿أَعۡجَمِيّٞ﴾: (عجم) يدلّ على أصولٍ، تدور حول امْتِساك الشَّيْء في ذاته أو في غيره، مع التّداخل والانضغاطِ الشَّديد، كما هو النّوى في التّمر، ومنه عَجُمَ الكلام إذا تداخل

(1) الرّاغب، المفردات: (بشر).
(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 204.
(3) الخليل، العين: (لسن).
(4) الأزهري، تهذيب اللّغة: (لسن).
(5) الزّبيدي، تاج العروس: (لسن).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (لسن).
(7) الرّاغب، المفردات: (لحد).

وتماسك[1]، ومِنه أيضًا السّكوتُ والصمت، فالبهيمة عجماء، وموج أعْجَم: ليس له رَشَاش ولا صوت، والأعجم: الأخرس، ويُقال: عَجُم فلان، بضم الجيم، أي: لم يُفْصِح في كلامه، وأعجمَ الكلامَ: أبْهمه، وسمّيت الحروف بحُروف المعجم لأنّها لا تفصح بذاتها عن معنى.

ومن لا يُفْصِح ولا يُبين كلامَه، ومن ليس بعربي وكان من جنس العجم، فهو أعجمي وعَجَمي، وجاءت التسمية بالعَجَم لمن لَيْس من العرَبِ قياسًا؛ كأنّهم لمّا لم يَفْهموا عنهم سمَّوْهم عَجَمًا[2]، ومعنى (الأعجمي) في الآية: الّذي لا يُفْصِحُ بالعربيّة في كلامه ولا يُبينُ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الـرّد عـلى شُبه تعـلُّم الـرسول ﷺ الـقرآنَ من بـشر بـالـدليـل العقلي

يُخبر الله ﷻ في هذه الآية أنه يعلم علمًا أزليًّا أبديًّا أنَّ كفار قريش يزعمون أنَّ الذي يتلقّى عنه الرسول ﷺ القرآنَ الكريم بشرٌ من البشر - واحدٌ أو أكثر - وهم كاذبون في دعواهم، ثم ينفي الله تعالى ذلك الادِّعاء الكاذب بدليل عقليّ لا يقبل الجدال، هو أنَّ "لسان الرجل الذي يُميلون قولهم عن الاستقامة إليه لسانٌ أعْجَميٌّ غيرُ بيِّن، وهذا القرآن لِسانٌ عَرَبيٌّ مُبينٌ ذو بيان وفصاحة"[3]، "فكيف يتعلَّمُ مَن جاء بهذا القرآن، في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة، التي هي أكمل من معاني كلِّ كتاب نزل على نبيٍّ أُرسل، كيف يتعلَّمُ من رجل أعجمي؟! لا يقول هذا من له أدنى مُسْكة من العقل"[4].

وترشدُ الآية الكريمة أنَّ الكاذب يكذِبُ ولا يفكِّرُ فيما يؤول إليه كذِبُه، فيكونُ في قوله من التناقض والفسادِ ما يوجبُ ردَّه بمجرَّد

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عجم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عجم).
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 635.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 604.

تصوُّره، وإلى دفاعِ اللّه تعالى عن رسولِه ودرءِ كلِّ تُهمةٍ وفِرْيةٍ خبيثةٍ توجَّه إلى رسول اللّه ﷺ، وإلى أنَّ تعلُّم اللغةِ العربيةِ عبادة؛ لأنها توصل إلى فهم القرآن الكريم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ﴾:

زعْمُ الكفّارِ أنَّ القرآنَ كلامُ بشرٍ - مع عجزهم عن معارضته - مغالطةٌ

هذه الواو واو القسم بدليل اللام الداخلة على (قد) بعدها، ويمكن اعتبار جملة ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ استئنافية؛ سيقت لتسلية الرسول ﷺ وتهوين أمر تكذيب كفار قريش، وإمداده ﷺ بِحُجَّةٍ قوية وبرهان ساطع على كَذِبهم وغبائهم؛ إذ يزعمون نسبة الكتاب المجيد الذي جاء به بِلُغَةٍ فصيحة وبيان بليغ إلى أعجميٍّ لا يُحسن نُطْق الكلام العربي نطقًا صحيحًا، فكيف له أن يأتي بكلامٍ عجَزوا هم عن معارضته؟ ويمكن أن تكون الواوُ عاطفة لهذه الجملة على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ [النحل: 101]، ويكون الغرض إبطالًا لتلبيس آخر مما يُلَبِّسون به على عامَّتهم بأن يقولوا: إن محمدًا يتلقّى القرآن من رجل من أهل مكة[2].

معنى اللام في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ﴾:

غرابة هذا الاتهام من أرباب الفصاحة

لمّا كان اتّهام كفار مكة للرسول ﷺ بأنه يتعلم القرآن من بشر أعجميّ اتّهامًا غريبًا لا يصدر من أرباب الفصاحة؛ جاء التعبير باللام في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ﴾ المُوَطِّئَةِ للقَسَمِ؛ لتأكيد وقوعه منهم؛ "أيْ: ولَقَدْ نَعْلَمُ أنَّ هَؤُلاءِ الكُفّارَ يَقولونَ ..."[3].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 604، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 450، والجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 160.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 286.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 232.

وفي الإتيان بها تقرير لهذا الخبر الذي يقتضيه عدمُ تصور الرسول ﷺ وقوع هذا الافتراء والبهتان من كفار قريش؛ لأنهم أصحاب البلاغة؛ فكيف يزعمون أنَّ هذا القرآن مما يُمكن لأعجمي إبداعه! لكنَّ تلك التهمة لا تضُر به ولا بالرسول ﷺ، و"أيُّ ضرر يَلحق مَن كانت مع السلطان مُجالستُه، إذا خَفيتْ على الأخسّ من الرعية حالته؟"[1].

فائدةُ التأكيد بقوله: ﴿وَلَقَدْ﴾:

الإشارةُ إلى تغرير رؤساء المشركين بعامَّتهم

صُدّرت الجملة بالتأكيد بلام القسم و(قد) للإشارة إلى أنَّ قادة المشركين كانوا يقولون ذلك لعامّتهم من باب التغرير بهم والتجهيل؛ لصرفهم عن الإيمان به ﷺ وبما نزل عليه ولا يجهرون به بين المسلمين؛ لأنه باطل مكشوف، وأن الله أطلع المسلمين على ذلك[2].

نكتةُ دخول (قد) على الفعل المضارع ﴿نَعْلَمُ﴾:

الدلالةُ على تحقّقِ العلم واستمراره وقِدَمِه وعمومِ الأحوال

قال ابن عطية: "(قَدْ) الملازِم للفعل حرفٌ يجيء مع التوقُّع إمّا عند المتكلم وإمّا عند السامع، أو مقدّرا عنده، فإذا كان الفعل خالصًا للاستقبال كان التوقُّعُ من المتكلم، كقولك: قد يقوم زيد، وقد ينزل المطر في شهر كذا، إذا كان الفعل ماضيًا أو فعلَ حالٍ بمعنى المُضيّ مثل آيتنا هذه، فإنَّ التوقُّع ليس من المتكلِّم، بل المتكلِّم موجِبٌ ما أخبر به، وإنما كان التوقُّعُ عند السامع فيخبره المتكلِّم بأحد المتوقَّعَيْن، ودخول (قد) على ﴿نَعْلَمُ﴾ تدلُّ على تحقّق العلم واستمرارِه وقِدَمِه، فهي تَعُمُّ المُضيَّ والحالَ والاستقبال"[3].

سرُّ التعبير بالعِلم دون المعرفة:

العلم أعمّ وأشمل من المعرفة

آثر التعبير بالعلم دون المعرفة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ﴾؛

(1) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/ 321.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 286.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/ 285.

لوجود فرق بينهما؛ فالمعرفة تتعلق بالجزئيات، والعلم يتعلق بالجزئيات والكليات معًا؛ لذلك فالعلم أعمُّ وأشمل، وأكثر استيعابًا لأبعاد المعنى وتفاصيل القضية؛ أما المعرفة فتستعمل في العلم القاصر المتوصل إليه بتدبر آثاره دون إدراك ذاته؛ لذلك لم يوصف علم الله تعالى بالمعرفة؛ إذ العارف قد يعرف شيئًا وتغيب عنه أشياء، أما العالم فمحيط بكل التفاصيل الدقيقة كما هو محيط بالكليات الجامعة، وهذا ما يليق بجلال الله تعالى وكماله، وهو المناسب لهذا السياق؛ لأنّ زعمهم في تعلُّم رسول الله ﷺ القرآن من أعجمي قد يكون صادرًا منهم في الظّاهر أو في الخفاء، وهو الأولى؛ فالمناسب لفَضْحِهم وكشف خفاياهم في هذا السّياق العلمُ دون المعرفة.

دلالة المضارعة في الفعل ﴿نَعْلَمُ﴾:

تهديدُ الكفّارِ باستمرار إحاطةِ علمِ الله بكلِّ ما يستجدُّ من أقوالهم

دلَّ التعبير بالمضارع في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾ على أنَّ علم الله محيطٌ بهم، وأنه سبحانه يعلم ما قال الكفّار في حقِّ القرآن، وقد جاء معبّرًا عنه بقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ﴾، فالمناسب أن يكون: (نعلم ما يقولون) وليس (علمنا ما يقولون)؛ لأن التعبير بالمضارع هنا جاء لتهديد الكفار، كأنَّ الآية تقول لهم: إن الله يُتابع أقوالكم أوَّلًا بأوَّل، وستُجزَوْن بما كنتم تعملون[1].

فالمضارعة في الفعل ﴿نَعْلَمُ﴾ تصرِّح بأنّ علم الله تعالى بما يقع حاضرٌ أبدًا لا يتأخَّر، وأنّ علمه سبحانه "محيط بهم، وأنه ﷻ يعلم ما قالوا، وما سيقولون من تلك المقولات المنكرة، التي يقولونها في النبيّ الكريم ﷺ، وفي كتاب الله تعالى الذي بين يديه"[2]، فـ"صيغة الاستقبال لإفادة استمرار العلم بحسب الاستمرار التجددي في متعلَّقه فإنهم مستمرّون على التفوّه بتلك العظيمة"[3].

(1) القدّوميّ، التّفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني، ص: 207.
(2) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 7/ 372.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 468.

وجهُ التعبير بـ (أنَّ) في جملة ﴿أَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾:

المبالغة في تسكينِ عَجَبِه ﷺ من زعم الكفار

لقائل أنْ يقول: بدأ خبر علم الله تعالى بما يقولون بالقسم، فما الداعي لذِكر (أنّ) في جملة ﴿أَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾؟ فأجاب ابن عطية عن ذلك فقال: "دخلت (أنَّ) للمبالغة في التأكيد"[1].

وفيها إشارة إلى شدّة تعجُّب النبي ﷺ من ادّعاء كفّار قريش أنّ هذا القرآن من قيلِ بَشَرٍ؛ فظهر بذلك دلالة استعمال (أنّ) على التوكيد والمبالغة في تسكينِ عَجَبِه ﷺ من مقولة الكفار ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾.

غرضُ التعبير بالإضمار في قوله: ﴿أَنَّهُمْ﴾:

ازدراء الكفار وعدم العناية بذكرهم

في طيّ أسماء كفار قريش الذين يلحدون بكلام الله تعالى إلى لسانٍ أعجميٍّ، وعدم التصريح بها تطهيرٌ للسياق من ذكرهم، وازدراء لهم بسبب رِجسهم وكفرهم؛ وأنهم لا يستأهلون شرف الذكر في هذه الساحة الطاهرة؛ فاستبعادهم والتعبير عنهم بضمير الغائب أليق بالمقام.

سرُّ التعبير بالقول دون الزعم:

قول السوء أخطر على قائله وعلى مجتمعه

آثر القرآن الكريم التعبير بالقول دون الزعم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾ لوجود فرقٍ بينهما؛ فالقول دليل على قناعتهم العقيدية، وقديمًا قال الشاعر:

إنَّ الكَلامَ لَفي الفُؤادِ وإنَّما *** جُعِلَ اللِّسانُ عَلَى الفُؤادِ دَليلا

فالكفار هنا حريصون أن يُشاع عنهم القول بنفي أن يكون القرآن الكريم من كلام الله تعالى، أما الزَّعم؛ فهو حكاية قولٍ يكون مظنة للكذب، ولهذا جاء في القرآن في كل موضع ذُمَّ القائلون به؛ نحو ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ [التغابن: 7]، ونحو ذلك من الآيات في هذا الإطار[2]، وبناءً على هذا لم يرد التعبير به؛ لأنه يوحي بِعدم

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/ 285.
(2) الرّاغب، المفردات: (زعم).

قناعتهم بما يَزعمون؛ وعدم قوة ما يدَّعون، ولأن القول أعمّ من الزعم؛ لذلك قد يُبنَى الجزاء عليه في الذكر الحكيم، كما في قول الله تعالى: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ [المائدة: 85]، وقوله ﷻ: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾ [المائدة: 64]؛ وذلك لأن القول من أخطر ما يتعدَّى خيرُه أو شرُّه إلى الناس، بخلاف خطر المعتقَد المكتوم الذي يكون وقفًا على صاحبه.

فائدةُ التعبير بالمضارع في ﴿يَقُولُونَ﴾:

التعبير بالمُضارع ﴿يَقُولُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ﴾ يُترجِم بدقّةٍ حرصَهم على إشاعة ذلك القول وإذاعته، وعدم التوقّف عنه كلما أتيحت لهم فرصة التشكيك في كتاب الله تعالى وفي نُبوَّة الرسول ﷺ فهم يجدّدون القول، وينوِّعونه، ويتفنَّنون في تزيينه وإقناع الناس به، و"أنهم مستمرّون على تفوُّهِ تلكَ العظيمةِ"[1]، ويقولون "قولًا متكرّرًا لا يزالون يلهجون به"[2].

أصحاب السوء لا يملّون التشكيك في كتاب الله وفي نبوة رسوله

دلالة التأكيد في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ﴾:

كفّار قريش يبحثون عن الطعن في القرآن الكريم بكل الوسائل، ويدَّعون من القول الزّور؛ ذلك أنهم افتروا على الرسول ﷺ فرية مكذوبة ومفضوحة، أنه تعلّم القرآن من بشر أعجميّ[3]، وكان حرصهم الشديد الذي أكّده القرآن بأداة التوكيد ﴿إِنَّمَا﴾ من أجل إشاعة التشكيك في أنّ القرآن الكريم ليس من عند الله تعالى، وأنّ محمدًا ﷺ ليس مرسلًا من قِبَل ربه ﷻ، وفي سبيل تحقيقها يحتشدون، ويحشُدون كل طاقاتهم، ولا يتوانَوْن عنها قطُّ؛ لذلك

إشاعةُ التشكيك في القرآن بعزمٍ وإصرارٍ قضيَّةُ المشركين

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 141.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 256.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 468.

جاء الأسلوب مبنيًا على التوكيد، والتوكيد هنا بأسلوب القصر: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾، أي ليس هذا إلا من عند البشر.

وفي هذا دلالة على أن الاتهام الصادر منهم في القرآن وفي الرسول ﷺ مبنيٌّ على الإصرار والتأكيد.

بلاغة القصر بـ ﴿إِنَّمَا﴾:

زَعَمَ المشركونَ أنَّ بشريَّةَ القرآنِ أمرٌ معلومٌ مُسَلَّمٌ به

آثر القرآن الكريم التعبير بأسلوب القصر ﴿إِنَّمَا﴾ بهذه الصورة دون غيرها من صور القصْر؛ نحو النفي والاستثناء؛ فلم يرد التعبير على ألسنتهم: (ما يُعَلِّمُه إلا بَشَر)، بل قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾، والفرق بينهما جليل؛ إذ إنّ أداة القصر ﴿إِنَّمَا﴾ تستعمل في المعاني المقرَّرة، والأحكام المشهورة، والقضايا التي لا يُختلَف فيها، فهم إذًا يوحون بإيثارهم ﴿إِنَّمَا﴾ بأنّ تعليم محمدٍ صلى الله عليه سلم مِن قِبَل بَشر أمر معلوم مسلَّم به ولا مُشاحَّة فيه؛ فينفثون في الناس هذا الشرّ المغلَّفَ بِخُبث طوايا ومكر نفوس.

ويدلّ تعبير القصر بـ ﴿إِنَّمَا﴾ دون غيره على خُبْث نفوس الكفار وعدم اكتراثهم بذلك؛ فلم يؤكّدوا اتّهامهم لرسول الله ﷺ بطريق النفي والاستثناء الذي تَحاشَوْه؛ لأنه يرسل برسائل أنهم يحتشدون ويستميتون في تكذيب النبي ﷺ، وهذا ما لا يُريدونه أن يشاع عنهم استكبارًا.

والقصر في هذه الجملة ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ قصرُ قلبٍ لكلام رسول الله ﷺ أنّ هذا القرآن من عند الله تعالى وأنه حقًّا كلام الله ﷻ.

سرُّ التعبير بالتعليم دون التدريس:

بلاغة القرآن أجبرت الكفار على الاعتراف به

آثر القرآنُ الكريم التعبيرَ بالتعليم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ دون التدريس؛ لأنه يحقّق غرضَهم في الاتّهام والتلفيق؛ بخلاف التدريس والتلقين من الأعجمي للنبي محمد ﷺ فلا

يرقيان في وعي كفار قريش إلى ما رأوْه وعلِموه من عظمة نظم الذكر الحكيم، وما أبصروه من دقائق معانيه، وعلوٍّ كعب بلاغته؛ لذلك ترقَّوْا في تصوُّرِهم إلى التعبير اللائق بهذا البيان العالي - وإن تنكّروا له - فقالوا: ﴿يُعَلِّمُهُۥ﴾، وبذلك يكونون قد وقعوا في التناقُض؛ إذ كيف يَرقى ﴿بَشَرٌ﴾ - أيًّا كان هذا البشرُ - إلى أن يُبدع هذا النَّمط الذي يَرقى إلى التعليم لا مجرّد التلقين والدراسة؟

بلاغة الإضمار دون الإظهار في ﴿يُعَلِّمُهُۥ﴾:

محاولةُ الكفارِ اليائسةُ الغضَّ من شأنه ﷺ

في إيثار الكفار ذكرَ النبي ﷺ بالضمير في قولهم: ﴿يُعَلِّمُهُۥ﴾ دون إظهار اسمه الشريف ﷺ؛ ليظهر الغرض من مقصودهم، وهو الغضُّ من قَدْر رسول الله ﷺ، والإيحاء بأنه - حاشاه ﷺ - ليس أهلًا لِذكر اسمه، وإجرائه على ألسنتهم.

أو أنَّ الذكر الحكيم هو الذي نأى بذكر اسم النبي الشريف ﷺ عن أنْ يُجريَه ولو حكايةً على ألسنتهم القذرة بقذارة الكفر ونجاسته، فاكتَفى بذكر ضميره الشريف ﷺ تكريمًا له.

دلالة التعبير بقولهم ﴿بَشَرٌ﴾ دون غيره:

جحودُهم لنبوته ﷺ ولفتُ انتباهٍ لما زعموه

آثر القرآن الكريم التعبير بلفظ ﴿بَشَرٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ دون غيره في إسناد تعليمه ﷺ إليه؛ مما يدعم جحودهم نُبوَّتَه ﷺ، ويقرّر إنكارهم أنَّ هذا القرآن من عند الله تعالى؛ ذلك أنّ ﴿بَشَرٌ﴾ مأخوذ من البشرة الظاهرة التي لا يُخفيها شعر، ومعنى الظهور الناضح من وصف ﴿بَشَرٌ﴾ يتّسق مع دعواهم أنّ قضية جلاء تَعلُّمه ﷺ من ﴿بَشَرٌ﴾ أمرٌ ظاهر معلوم مسلَّم به ولا شكّ فيه.

و"يقصدون به غلامًا أعجميًّا كان يقرأ التوراة والإنجيل ورأى فيهما أوصاف النبي ﷺ فأسْلَمَ، وحسُن إسلامُه بعد أنْ تحقَّق من صفات النبوّة فيه"[1] مع اختلافهم في تحديد اسمه.

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 5/ 681.

ومما يذكر في سر التعبير بلفظ ﴿بَشَرٌ﴾ أنها دعوةٌ للفت انتباههم إلى ما يقولون من غير رويّةٍ ولا تدبّر؛ لأنَّ البشر كلَّ البشر لا يستطيعون أن يأتوا بمثل هذا القرآن، أليسوا هم بشرًا ؟ فما لهم لا يأتون بمثله؟

لطيفةُ تنكيرِ ﴿بَشَرٌ﴾ في السّياق:

لمّا كان غرضُ الكفار الغضَّ من قدْر القرآن الكريم وقدر الرسول ﷺ نكَّروا لفظ ﴿بَشَرٌ﴾؛ إذ التنكير يُشعر بهوان المعلِّم، وغير ذلك من مَسَبّاتٍ ومَذمّات، مما ينعكس بالضرورة على تهوين ما جاء به محمد ﷺ، وما تَعلَّمه منه وتلقّاه عنه؛ فمن فرط جهلهم أنّهم توهَّموا أنّ هذا القرآن - الذي عجز كافَّة الخلق عن معارضته في فصاحته وبلاغته - مقولٌ وحاصل باتّصاله بِمَن هو أعجميُّ النطق[1].

محاولةُ تحقير المصدر الذي يلحدون بالقرآن الكريم إليه

كفار مكة يمعنون في افترائهم على الله وعلى رسوله، ويظهر ذلك جليًّا في تعبير القرآن عن ذلك بقوله: ﴿يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾، ومما يتناسب مع افترائهم تنكيرهم ﴿بَشَرٌ﴾ وتحقيرهم أمرَه بطَيِّهم لاسمه وعدم تحديدهم مَن يكون، ومع أنَّ البشرَ يثنَّى فيقال: (بشران) فإنهم أفردوه إمعانًا في التحقير والتجهيل والحطّ من شأنه؛ وبذلك يكون الكفّار قد جمعوا في ﴿بَشَرٌ﴾ بين إفراده، وتنكيره، وتجريده من اسمه؛ فنفوا عنه جميع المعاني السامية، قال القاسمي: "وإنما لم يصرّح باسْمه للإيذان بأنَّ مدار خطئهم ليس بنسبته صلوات الله عليه إلى التعلّم من شخص معيّن بل من البشر، كائنًا من كان"[2].

توسعة المشركين على أنفسهم في اختلاق المعاذير

ويؤكّد ذلك ما قاله ابن عاشور: "وسكتوا عن تعيينه توسعة على أنفسهم في اختلاق المعاذير، فإذا وجدوا ساذجًا أبْلَهَ يَسألُ عن

(1) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/ 321.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/ 410.

المعنيِّ بالبشرِ قالوا له: هو جبر أو بلعام، وإذا توسّموا نباهةَ السائل تجاهلوا وقالوا: هو بشر من الناس"[1].

دلالة مقولة الكفار ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾:

الحقد يعمي صاحبه عن الحق

أبانت هذه الجملة القصيرةُ المتكاثفةُ الإيحاءاتِ والدلالات كِذْبَ كفار قريش في زعمِهم، وتجرُّدَهم من الصدق، ونفورَهم من الحقّ؛ ذلك أنهم أدرى الناس بِجَلال القرآن الكريم، وعظمةِ بلاغته، وسموِّ معانيه، لكنه الحقد الذي أعمى القلوب، والضلال الذي أظلم البصائر وأعشاها.

معنى فصل ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ﴾ عمّا قبلَه:

الفصل بين كلام الله وكلام كفار مكة؛ للردّ عليهم

فُصلت هذه الجملة عما قبلها؛ لأنها "مستأنفة استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ قولهم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ يتضمّن أنه ليس منزَّلًا من عند الله تعالى فيسأل سائلٌ: ما جوابُ قولهم؟ فيقال: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى﴾، وهذا النظمُ نظيرُ نظم قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: 124]"[2].

ومما يُذكر في فصل النظم الكريم ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ﴾ عن قولهم ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ أنَّ هذه الجملة من كلام الله ﷻ للرد عليهم، وأنّ الجملة السابقة من كلام الكفار؛ فقَطَع واستأنف بذكر الدليل؛ ليزيح تلك الشبهة الباطلة، فدلّل على بطلانها بأن هذا البشر أعجميٌّ لا يكاد يُبين بالعربية الفصيحة، وأنّ هذا القرآن في قمة العربية المُبينة، فكيف تدَّعون صدور القرآن العظيم عنه، وأنتم أعرفُ الناس به وأفصحُ الخلق بالعربية؟

سرُّ التعبير بـ ﴿لِّسَانُ﴾ دون اللغة:

آثرَ القرآن الكريم التعبير بكلمة ﴿لِّسَانُ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 287.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 287.

(اللسان) آلة اللغة، وتحاشيًا لإيهام معنى غير مراد

﴿يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ﴾ دون اللغة؛ لأن اللسان أداة اللغة وآلتُها سُمّيت باسمه، "وَإِطْلاقُ اللِّسانِ وهوَ اسْمُ الجارِحَةِ المَعْروفَةِ في الفَمِ عَلَى اللُّغَةِ مَجازٌ شائِعٌ"[1]، وقد تحاشى القرآن الكريم ذِكْر مفردة اللغة تمامًا؛ وبذلك تحاشى ما يوهمه بعض اشتقاقها من معنى (اللغو) فليس في كلام الله تعالى لغوٌ، وليس في الذكر الحكيم أيّ لغو؛ لذلك آثر الذكر الحكيم ذكر آلة اللغة وهي اللسان، مجازًا لغويّا مرسلًا، علاقته الآليّة كما ترى.

وقد "غَلَبَ إِطْلاقُ اللِّسانِ عَلَى اللُّغَةِ؛ لِأَنَّ أَشْرَفَ ما يُسْتَعْمَلُ فيهِ اللِّسانُ هوَ الكَلامُ، قالَ تَعالَى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ [إبراهيم: 4]، وقالَ ﷻ: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ [مَرْيَم: 97]"[2].

وقد "أشار تعالى إلى وضوح بطلان بهتهم بأن لسان الرجل الذي ينسبون إليه التعليم أعجمي غير بيّن، وهذا القرآن الكريم لسان عربي مبين، ذو بيان وفصاحة، ومن أين للأعجميّ أن يذوق بلاغة هذا التنزيل، وما حواه من العلوم، فضلًا أن ينطق به، فضلًا أن يكون معلّمًا له!"[3].

دلالة التّعبير بالموصول ﴿ٱلَّذِى﴾:

النظم القرآني يركّز على ذكر المهمّ دون سواه، والتشويقِ للمعنى

عبَّر القرآن الكريم بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾؛ لأنه يتَّسم بإبهام الدلالة وخفائها، وعدم تميُّز المقصود مَنْ يكون؟ لذلك كان الموصول فقير الدلالة؛ يحتاج إلى ما يَسُدُّ فقر دلالته، فإذا جاءت جملة الصلة ﴿يُلۡحِدُونَ﴾ توجّه الموصول وتحدَّدتْ دلالته، وتبيّنتْ وجهة الكلام، وتوقّع المتلقّي طبيعة الخبر الآتي، وأنه من جنس ﴿أَعۡجَمِيٌّ﴾، وهذا ما عبَّر عنه البلاغيون ضمن مهامِّ التعريف بالموصول: الإيماء إلى وجه بناء الخبر[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 321.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 25.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/ 410.
(4) السّبكيّ، عروس الأفراح: 1/ 172.

وعبّر به؛ لأنّه عنصرُ تشويق بوصفه مُبهَمًا ناقص الدلالة، ثم هو مِن بين عناصر التعريف يُفسِح الأسلوب لِذكر عناصر ذات دلالاتٍ مهمة في سياقه، لأنها تتآزر على خدمة المعنى، وتُسْهِم في تحقيق الغرض، فقد هيّأ الموصول هنا لذكر المضارع ﴿يُلۡحِدُونَ﴾، ولذكر القيد ﴿إِلَيۡهِ﴾، وما وراءهما من إشارات معنوية، ما كانت لِتُتاح إلا بسببٍ من الموصول، ثم إنَّ السياق هنا يأبى ذكر الأعلام المعبَّر عنها بالموصول؛ لأنه حينئذ يوهم تعلّق الغرض بها لا بقضية العُجمة التي فيها، مما يحول دون قدرتهم على إبداع هذا القرآن، والله تعالى أعلم.

سرُّ التعبير بقوله: ﴿يُلۡحِدُونَ﴾ دون (يميلون):

من خصائص بلاغة الذكر الحكيم غزارةُ دلالاتِ مفرداته وتراكيبه

آثر التعبير بلفظ ﴿يُلۡحِدُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ﴾ دون يميلون؛ لأنّ مادّة الفعل ﴿يُلۡحِدُونَ﴾ تحمل إيحاء اللحد الذي يُلحد فيه الميِّت، وهي مفقودة في مفردة (يميلون)، فالكفار يتخابثون في زعمهم ذلك؛ فيرغبون بدفن تلك الأخبار، وكتم صوت الذكر الحكيم، والتخلُّص من قصّة محمد ورسالته، وأنّ الأمر لديهم ليس مجرّد الميل بالوحي الكريم إلى ﴿بَشَرٞۗ﴾ ونسبته إليه، وأنّ الإلحاد يُقرِّر اختلالهم، وميلَهم هم أنفسهم إلى باطل.

وإذا كان "الإلحاد معناه الميل، يقال: لَحد وألْحَد، إذا مال عن القصد" فإنّ الفعل ﴿يُلۡحِدُونَ﴾ مضمّن معنى الفعل ينحرفون، ويختلّون"[1]، وأصل "الإلحاد: الميل عن وسط الشيء إلى جانبه، وإلى هذا المعنى تَرجِع مشتقاتُه كلُّها، ولمّا كان وسط الشيء يُشَبَّه به الحقُّ والصواب، استَتْبَعَ ذلك تشبيهُ العدول عن الحق إلى الباطل بالإلحاد"[2].

(1) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 85.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 288، 9/ 189.

دلالة التعبير بالمضارع في قوله: ﴿يُلْحِدُونَ﴾:

الكفار لا يَملّون من إشاعة الشُّبَه والشكوك

المضارعة في ﴿يُلْحِدُونَ﴾ تحكي إصرارهم على كتْم صوت الرسول ﷺ والتشكيك في القرآنِ الكريم؛ لذلك يجدّدون الإلحاد ويكرّرونه، ولا يتوانَوْن في ذلك قط، ولا شكَّ أنَّ ذلك يملأ الأجواء شكوكًا وضجيجًا من شأنه أن يؤثّر في سواد الناس الأعظم أيَّ قدر من التأثير.

أثر تعدُّد القراءات في ﴿يُلْحِدُونَ﴾:

الكفارُ يَميلون بأنفسهم ويُميلون بزعمهم إلى بشريَّة القرآن كَذِبًا وزُورًا

من المقرّر أنّ تعدد القراءات يُثري الدلالات، ويضفي على سلوك هؤلاء الكفار قبحًا إلى قبح، وضلالًا إلى ضلال على الوجه المبيّن في كتب التفسير.

وقد جاءت قراءة العامّة بضم الياء وكسر الحاء ﴿يُلْحِدُونَ﴾ من (ألْحَد)، وقُرِئَ بفتح الياء والحاء[1]: ﴿يَلْحَدُونَ﴾ من (لَحَد)، ويدلُّ على القراءة الأولى بضَمِّ الياء قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾ [الحج: 25]، ويكون الإلحاد بمعنى الإمالة، وفُسِّر (يلحدون) في هذه الآية بالقراءتَيْن، فقال الفرّاء: يَميلون من الميل، وقال الزجاج: لسان الذي يُميلون القولَ إليه أعجميٌّ، وقال ابن قتيبة: أي: يؤمنون إليه، ويزعمون أنه يُعلِّمك أعجميٌّ لا يُفصِح ولا يتكلم بالعربية، فكيف يَتعلَّمُ منه ما هو في أعلى طبقاتِ البيان[2].

فتعاضدت القراءتان في قوله تعالى: ﴿يُلْحِدُونَ﴾ لِتُفيدا أنّ الكفار يَميلون إلى الإلحاد ويؤْثِرونه، ويُرَوِّجونه بين الناس، ويُرَجِّحونه عندهم.

وقال البعض: إنّ (ألحد) و(لحد) لغتان إلا أنّ (ألحد) أكثر من

(1) وهي قراءة حمزة والكسائي وخلف العاشر في سورة النحل، يُنظر: ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 273.

(2) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 85.

(لحد) بغير ألف، يقال: هو ملحد، ولا يقال: لاحِدٌ، ويقال: ألحد في الدين، ولحد عن الحق؛ إذا عدل[1].

دلالة تعدي الفعل ﴿يُلْحِدُونَ﴾ بـ (إلى) دون (اللّام):

بيانُ الغاية من زعمِهم وعزوِّهم، وأنَّ المعزوَّ إليه غيرُ مُستَحِقٍّ لهذا المَيْل

تعدية الفعل ﴿يُلْحِدُونَ﴾ بـ (إلى) يُثري دلالتَه، وذلك بتضمينه معنى فعلٍ آخر نحو: (يَعزون)، وبذلك تَتغازر الدلالات، وتتآزر على كشف ما يُبطنونه مِن حقدٍ وكيد للرسول ﷺ ولرسالته العصماء ولكتابها الكريم، بما يُقرِّر أنَّ المعركة كانت - كما ستظلُّ - بين الحقِّ وأهله وبين الباطل وأهله على أشُدِّها، وتلك من سنة الله تعالى في خلقه.

ومما يذكر في سر تعدية الفعل بـ (إلى) دون اللام؛ أن (إلى) تدل على انتهاء الغاية؛ فكأن غايتهم ظاهرة في أمر الطعن في نبوته ﷺ؛ بخلاف (اللام)، فقد يفهم منها أن لسان الذي يلحدون إليه له مؤهلات استحقّ بها هذا الميل والإلحاد إليه، وهذا غير واقع؛ لأنه أعجمي؛ فظهر بذلك أنّ غايتهم مجرد الزعم بأنّه يعلّمُ النبي القرآن؛ للطعن والتشكيك.

دلالةُ الإضمارِ في قوله ﴿إِلَيْهِ﴾ وبلاغتُه:

الاحتكامُ في أمرٍ إلى غير أهله دليلٌ على سفاهة العقول

دلَّ الإضمارُ في ﴿إِلَيْهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ على أنَّ (الأعجمي) ليس أهلًا لما زعموا في دعوى تعليمه للرسول ﷺ؛ لأنَّ الأمر فوقه كما هو فوقهم، وفوق الخلق جميعًا، وهم أدرى الناس بذلك لما يمتلكون من ناصية البيان؛ فهم الجيل الحُجَّةُ على الخلق جميعًا، وكأنه يقول لهم: "أنتم أفصح الناس وأبلغهم وأقدرهم على الكلام نظمًا ونثرًا، وقد عجزتم وعجز جميع العرب عن الإتيان بمثله، فكيف تنسبونه إلى أعجميٍّ ألكن وهو كما ترى؟"[2].

(1) ابن أبي مريم، الكتاب الموضح في وجوه القراءات وعللها: 2/ 566.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 469.

سر إفراد الضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾:

مناسبةُ الضميرِ لمرجعه مع تحقيره في زعم القائلين

جاء الضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾ مفردًا ولم يأتِ جمعًا مطابَقةً لإفراد مَرْجِعِه في قولهم ﴿بَشَرٌ﴾؛ لأن هذا اللفظ يوصف به المفرد والمثنى والجمع، فهو مناسب؛ لأنَّ المراد به ﴿ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ غير أن الذين يلحدون إليهم أكثر من واحد، ففي بعض الأقوال أنه مثنّى، وفي بعضها أنه جمع، فكان القياسُ تثنيتَه أو جمعه بحسب العدد، غير أنَّ إفرادَ الضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾ أنسب لإفراد مرجِعه ﴿بَشَرٌ﴾، ثم إن في إفراده تناسبًا مع قصدهم الغضَّ من قَدرِه؛ لأنه كلما كان أحقر كانَ أغضَّ من عظمة القرآن الكريم الذي يَعزونه إليه ويزعمونه له.

براعةُ التعبير بقوله: ﴿أَعْجَمِىٌّ﴾:

وجازةُ اللفظ بدلالته وتركيبه وجَرْسه في دحض فريتهم

آثرَ القرآن الكريم التعبير بقوله: ﴿أَعْجَمِىٌّ﴾ دون غير العربي؛ لأنه يبطل زعمهم من أصله؛ ولأنّ المراد به الذي لا يُبين عن مراده من كلّ ناطقٍ، ولا يفهم السامع ما يريده.

ووصْفُ مَن يُلحِد إليه الكفارُ بالعُجمة يقرّر ضعْفه عن أن يكون هنالك، بل هو أبين على عجزه عن مجرد النطق باللغة نطقًا صحيحًا، فضلًا عن أن يُبدِع مثل هذا القرآنَ العظيم أو قريبًا منه، الذي عجَزوا هم عنه وهم أرباب الفصاحة وأساطين البلاغة في عصر الازدهار اللغويّ.

أما وصف (غير العربي) فلا يُشترط فيه عدم الإفصاح، بل قد يفصح (غير العربي) بالعربية؛ فلا يغني هذا الوصف غَناء ﴿أَعْجَمِىٌّ﴾؛ لأنّ الموصوف بـ ﴿أَعْجَمِىٌّ﴾ قطعًا يَعجز، بل هو الأكثر عجزًا عن البراعة اللغوية العربية.

ثم إنّ كلمة ﴿أَعْجَمِىٌّ﴾ مفردةٌ واحدة، أما بديلها - غيرُ الوافي بعطائها (غير عربي) - فكلمتان، والإيجاز بإيثار الأوَّلِ أوْلَى،

كذلك في حروف ﴿أَعۡجَمِيٌّ﴾ ثِقَلٌ يَحكي صعوبة اللغة العربية عليه وتعثُّرَه بنطقها.

سِرّ العدولِ عن (أعجم) إلى ﴿أَعۡجَمِيٌّ﴾:

النَّسَبُ إلى الأمة الأعجمية أقوى في الدلالة من صريح الوصف

الأصلُ في وصْفِ ﴿لِّسَانُ﴾ المحذوف أن يكون (أعجم)، فيكون التقدير: (لسانُ الذي يُلحدون إليه أعجم)، لكنه نُسِب إلى أُمَّة العجم، فجاء الوصف ﴿أَعۡجَمِيٌّ﴾؛ وذلك "لِتَقْوِيَة وصْفِه بِالعجز عن الإفصاح"[1]؛ دعمًا للإبانة عن بُعْد ما بين نمط الذكر الحكيم العالي، ونمط أسلوب الأعجميّ النازل.

وفيه دلالة على تمكّن العُجمة فيه لدرجة أنه نُسب إليها، وفي ذلك توبيخٌ وتبكيت لكفّار مكة بسفاهة عقولهم.

غرضُ حذف الموصوف وإقامة الصّفة مكانه:

بيانُ كذِب الكفار، وإبرازُ سبب انهيار زعمهم

حَذَف النظمُ الكريم الموصوفَ (لسانٌ) وأبقى الصفة؛ لأن تقدير الجملة: (لسانُ الذي يُلحدون إليه لسانٌ أعجميٌّ)، فعبّر النظم الكريم مباشرة بالصفة ﴿أَعۡجَمِيٌّ﴾؛ وذلك للتركيز على دليل كذِب الكفار، وإبراز سبب انهيار زعمهم، وفيه تقريرُ نِسبة القرآن الكريم إلى الله ﷻ بدليل منطقيٍّ لا ينازِع فيه عاقل، وهذا أسلوبُ إقناعٍ مُفحِمٌ يُحيلهم على المنطق السديد في تحقيق المسألة، ويلقمهم الحُجّة.

معنى الواو في قوله: ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ﴾:

ليس من المنطق السّديد إنكارُ الإنسان ما يتجلّى له من الحقّ

الواو في قوله ﷻ: ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ واوُ الحال التي تَقْرِن زمنًا بين عُجْمَة لسانِ الأعجمي المزعومِ وفصاحةِ القرآن الكريم الفصيح.

والمعنى: كيف يَتأتّى لكم ومنكم هذا الزعم حالَ عربيةِ القرآن

(1) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 207.

الراقية، وفصاحته الدقيقة الأنيقة بما تَعْلمون، وأنتم في العربية أساتيذ؟ وهذا يضعهم في حرج شديد، ويَفْضح خِداعهم، ويُعرّي تمويههم على الناس، ويضيِّق عليهم خناق المناظرة.

سِرُّ التعبير باسم الإشارة (هذا):

فصاحة القرآن الكريم ظاهرةٌ للعيان

الإشارة إلى الذكر الحكيم ولغته الفصيحة بإشارة القريب (هذا) تنويهٌ بِقُربِ تناوله وتَميُّزِه لديهم؛ فلا يحتاجون إلى بذل جهدٍ لتحقيق أنه كلام اللّه؛ لأنه نزل بلغةٍ لسانها قريبٌ، وهو قريبُ التناول إليكم؛ فأنتم أهله المبرّزون فيه، وبذلك يضيّق عليهم الدليلُ الخناقَ، ويضطرهم إلى أضيق طريق في إلزامهم الحجة؛ فلا يَجدون مَهربًا من التسليم له بأنه من عند اللّه، وهذا من براعة النظم القرآنيّ الفريد.

فائدةُ إعادة ذكر اللّسانِ موصوفًا للعربيّ:

اختصاص اللّغة العربيّة بالقرآن الكريم دون غيرها مِنَ اللّغات

إعادة ذكر اللسان في جملة ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ﴾ ضرورةٌ تُحَتِّمها طبيعةُ الفصل بين اللسانَيْنِ وتمايُزهما واختلافهما اختلافًا جذريًا، فهذا لسانٌ وذاك لسانٌ آخرُ تمامًا، فذِكْرُه على جِهة الاستقلال يَدعم مخالفته ذلك اللسانَ الذي يُلحدون به إليه؛ فشتّان بينهما، فهذه لغةٌ فصيحة تتحمّل عمق الدّلالات القرآنيّة الكريمة، وتلك لغة هزيلة عاجزة عن أن تَستوعب طاقات هذا الكلام الشريف.

دلالة وصف اللّسانِ بالعربيّ:

اللغة العربية توفي كل المقامات حقها

وصف اللّسان بقوله: ﴿عَرَبِيٌّ﴾؛ لأنه يحمل معنى الإعراب والإبانة والكشف والوضوح، كما يقال: أعرب الصبيُّ عمّا في نفسه، فوصف لغة القرآن الكريم - المعبّر عنها باللسان - بلغة العرب، والإعراب وصفٌ دقيق، يُعبِّر عن رقّتها وعذوبتها، وكذلك عن فخامتها وقوة ألفاظها وجزالة معانيها.

ومما يدلُّ عليه هذا الوصف أنها لغةٌ توَفّي المقامات حقَّها بذاتها، ويبرز ذلك بحسب طاقة المتكلم وبقدر امتلاكه لأدواتِها.

سرُّ وصف اللِّسانِ بـ ﴿مُّبِينٌ﴾:

لـغـةُ الـقـرآن الكريم أفصحُ لغات العرب

أضاف الذكرُ الحكيم للِّسانِ وصفًا آخرَ بعد وصفه بـ ﴿عَرَبِيٌّ﴾، هو أدخلُ في المعنى المراد من سابِقه، بل إنَّ الإعرابَ نفسَه يُفسَّر بالبيان، فوصف البيان أشدُّ صراحة ومباشرة نحو الإبانة التي هي غايةُ غايات اللغات.

وهذا الوصف يدلُّ على أنه "أفْصَحُ ما يكون من العربية"[1]، وأنه مِن شِدَّة بيانه مُظهرٌ لِغيره؛ لأنه ذو بيان عظيم في استعمالاته في كل المستويات العلمية في الحاضر والمستقبل.

سرُّ إيثارِ الوصف بالإبانة دون الفصاحة:

وضـفُ الـقـرآن بالعربيّ المُبين ردٌّ على زعْمِ تعلُّمِه مِنْ أعجميٍّ غيرِ مُبين

وُصف اللسان العربي بالبيان في قوله: ﴿عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ دون أن يقول: (عربي فصيح)؛ لأن وصف العربية يحمل معنى الفصاحة، وهي من لوازم البيان؛ لأنه مُبينٌ ما لهم وما عليهم، أو مُبين للحقوق التي للّه ﷻ عليهم، وما لِبعضهم على بعض، أو مبين: أي بيِّنٌ أنه من عند اللّه تعالى نزل؛ فليس بِمفترَى[2]؛ لأنه البيِّن في ذاته بما أعجزكم ببيانه.

بلاغة التضاد بين ﴿أَعْجَمِيٌّ﴾، و﴿عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾:

الـضِّـدُّ يُـظـهـر حسنَه الضِّدُّ

التضاد بين ﴿أَعْجَمِيٌّ﴾، و﴿عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ أتاح لذهن المتلقّي عَقْدَ موازنة خاطفةٍ بين ضِدَّين: ﴿عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾، و﴿أَعْجَمِيٌّ﴾ - أي: حَصِرٌ عَيِيّ -، وذلك مما يزيد الهوّة بينهما اتساعًا، فيزداد العيُّ عيًّا، والبليغ بلاغة، وسوق ذلك في سياق القضية المنطقية المؤدّية إلى التسليم بالمطلوب يَدعم الغرض بقوة، ويُحقّق على الكفار كَذِبَهم وبُهتانهم، ويكشفهم أمام أنفسهم، ثم يفضحهم أمام الناس.

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 179.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/ 574.

فالتضادّ يدلُّ على أنه "زائد في الإبانة - بمعنى الفصاحة والبلاغة-؛ فحصل تمامُ التَّضادِّ بينه وبين لسانِ الذي يُلحدون إليه"[1].

بلاغة أسلوب القرآن في إبطال زعم كفار مكة:

الذكر الحكيم يعتمد الأدلة العقلية القاطعة في إفحام الخصوم

اتّبع أسلوب القرآن الكريم هنا طريق خطاب العقل بالدليل المنطقي الذي يَحتكِم إلى العقل المتَّزِن الرشيد الذي إذا تبين له الحقُّ أقرَّ به واتَّبَعه ولم يراوغ فيه، فإذا راوغَ فيه كان مغالطًا مفضوحًا.

فهذا الأسلوب الذي اتَّبعه القرآن الكريم في إبطال زعم الكفار بقوله تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٞ﴾؛ هو من أساليب التدليل التي تُلْجئ الخصمَ إلى التسليم من أقرب طريق، فإن لم يُسَلِّم بان للناس أنه معاندٌ مبطِل، فانصرفوا عنه، ولم ينصاعوا لضلاله، فهو من خير الأساليب الناجعة في الخصومات.

وفي هذا الدليل القرآنيِّ المنطقيِّ - القويِّ في إلزام الكفار الحُجَّة - أنموذجٌ عظيمٌ وأسوةٌ جليلةٌ "لِمن يُجادلون أهل الأهواء، بأنْ يَحرصوا على الحُجَّة الساطعة، معرضين عن الحُجَج الأخرى؛ حتى لا يخبو ضوء الحقيقة خلال النقاش"[2].

دلالة سياق الآية:

لغةُ القرآن الفصيحةُ المبينة، ولغةُ مَن نسبوا القرآن إليه أعجمية

وقعت هذه الآية الكريمة ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ﴾ خيرَ موقع؛ حيث توسَّطتْ بين آيتي الحديث عن ادعاء افتراء الكذب على الرسول ﷺ؛ وإثبات وقوع افتراء الكذب من الكفار، وهما: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۚ﴾ و﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِى ٱلۡكَذِبَ﴾، فهم الّذين يفترون على الرسول ﷺ كما بيّن الدليل العقلي ذلك في الآية السابقة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 288.
(2) القدّوميّ، التّفسير البياني، ص: 207.

والذكر الحكيم لم يَتَّهِمهم بالافتراء على الرسول ﷺ ورسالته إلا بعد أن دلّل على ذلك بالبرهان القاطع الفاضح لهم، فساق أولًا دعواهم على الرسول ﷺ في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۚ﴾ [النحل: 101]؛ ثم كذّبهم من خلاله؛ فتقرّر صدقُه ﷺ بأنَّ لغةَ القرآنِ العربيةُ الفصيحةُ المبينة، وأن لغةَ الذين ينسبون القرآن إليه من البشر لغةٌ أعجمية مبهَمة عقيمة، وأنهما لا يلتقيان بحال، ولا سيّما أنكم أيها الكفار المكذِّبون قد عجزتم عن مجاراته ومعارضته وأنتم أهلُ الفصاحة وأرباب البيان، فكيف لهذا الأعجمي إبداعُه؟ ثم تَخْلُص هذه الآية بهذا الدليل العقلي إلى أنهم هم المفترون لا الرسول ﷺ، وتصرح بعده بهذا الافتراء الحقيقي منهم.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البشر والناس:

"البشر يقتضي حُسْنَ الهيئة، وذلك أنه مشتقٌّ من البِشارة - وهي حُسن الهيئة -، يقال: رجل بشير، وامرأةٌ بشيرة، إذا كان حسن الهيئة؛ فسُمّي الناس بَشَرًا؛ لأنهم أحسن الحيوان هيئة، ويجوز أن يقال: إن قولنا (بَشَر) يقتضي الظهور، وسُمّوا بَشرًا لِظهور شأنهم، ومنه قيل لظاهر الجلد: بَشْرَةٌ، والناس يقتضي النَّوْس، وهو الحركة، والناس جمع، والبشر واحد، وجمع، وفي القرآن: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ [المؤمنون: 24]، وتقول: محمد خير البشر، يعنون الناس كلهم، ويُثَنَّى البشر فيقال بَشَران، وفي القرآن: ﴿لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا﴾ [المؤمنون: 47]، ولم يسمع أنه يُجمع"[1].

التلقين والتعليم والدراسة:

التلقينُ يكون في الكلام فقط، والتعليم يكون في الكلام وغيره، تقول: لقَّنه الشعر وغيره، ولا يُقال: لقَّنه التجارة والنِّجارة والخياطة، كما يقال علَّمه في جميع ذلك، والتعليم يكون في المرَّة الواحدة، بخلاف التلقين لا يكون إلا من خلال مرّات متعددة، والتلقين هو مشافهتك غيرك بالتعليم وإلقاء القول إليه ليأخذه عنك، ووضع الحروف مواضعها، بخلاف التعليم لا يقتضي ذلك؛ ولهذا لا يقال: إن الله يُلقِّن العبد، كما يقال: إن الله يعلِّمه[2].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 101.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 141.

أما الدراسة فهي تَلَقّي العلم ومراجعتُه بِغرض فهمه وحفظه، من "دَرَسَ يدرُس درْسًا ودِراسةً، فهو دارس، والمفعول مَدْروس، [يقال:] درَس الكتابَ ونحوَه: كرَّر قراءته ليحفظه ويفهمه، قال اللّه تعالى: ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأنعام: 156]"[1]، وعلى ذلك فالدراسة أخص من العلم؛ لأنها تقوم على الفهم والتدبر.

العلم والمعرفة:

"المعرفة أخصُّ من العلم؛ لأنها علمٌ بِعَيْنِ الشيء مفصّلًا عما سواه، والعلم يكون مجملًا ومفصّلًا، قال الزُّهريُّ: "لا أصِفُ اللّهَ تعالى بأنّه عارف، ولا أُعَنِّفُ مَن يَصِفُه بذلك"، والفرق بين العلم والمعرفة إنما يتبيّن في الموضع الذي يكون فيه جملةٌ غير مبهمة؛ ألا ترى أن قولك: علمتُ أنّ لزيد ولدًا، وقولك: عرفت أنّ لزيد ولدًا يجريان مجرى واحدًا، قيل: المعرفةُ إدراك البسائط والجزئيات، والعلم: إدراك المركّبات والكلّيات؛ ومن ثَمَّ يُقال: عرَفت اللّه، ولا يقال: علمته"[2]؛ لأن معرفة شيء عنه ممكن، والعلم بكلّ شيء عنه ممتنع، واللّه تعالى أعلم.

(1) أحمد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (درس).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 500.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والعشرون،
سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 27 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-24-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 27 : المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-24-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7597590 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»